(٩٥)

العدل والإسماح

النبى : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف حدوه!

النبى : (لرجـــل أخذه الوجل) هون عليك، فإنى لســـت بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة!

«مكـة، وقـد تم تطهـير البيت الحـرام من الأصنـام، النبـى - عليه السـلام - يدعو إليه المنادين، فيأمرهم بالنـداء على أهل مكة أن من كان يؤمن بالله ورسـوله فلا يدعن صنمًا فى بيته إلاّ كسره..».

المنادون : (ينادون فى أحياء وأزقة مكة) من كان يؤمن بالله ورسـوله فـلا يدعن فى بيته صنمًا إلاّ كسـره. مـن كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعن فى بيته صنمًا إلاّ كسره.

* * *

«مكـة وقد مضت أيام علـى الفتح، النبى - عليه السـلام - يدعو إليه خالد بن الوليد فيأمره بالسـير إلى «نخلـة» لهدم «العـزى» التى ظلت قريـش وكنانة ومضر يعظمونهـا حقباً.. خالـد يتهيأ سريعًا فى ثلاثين فارسًا، وينطلق بمن معه إلى «نخلة» حيث أمره رسول الله».

* * *

«نخلة.. علـى امتداد الأفق تبـدو «العزى» معبودة قريش وكنانة ومضر فى الجاهلية.. البيت راقـد بـواد يقال لـه «حـراض» بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق مـن مكـة.. يتناقل الناس أن البيت تسـمع فيه أصوات حتى عدته قريش أعظـم أصنامها وجعلـت تسـمى أبناءهـا «عبد

العزى»!! ينهض على سدانة البيت وحجابته.. بنو شيبان من بنى سليم.. يعظمون البيت أيما تعظيم، ويعتنون به أعظم العناية احتفالا بالقادمين لزيارته من قريش وكنانة ومضر.. يأتون لتعظيم الصنم وقد أتوا معهم بالخيرات والذبائح يهدون له ويتقربون عنده بالذبح.. يهدى الجاهليون إلى هذا البيت مثلما يهدون إلى الكعبة..».

«السُّلمى سادن «العزى» يلمح غبار الفرسان مثارًا كالسحاب، ودبيب الخيول يقترب، فيجفل مذعورًا ويطير إلى سيفه فيعلقه بالصنم ويصعد فى الجبل ينشد مرتجزًا لاستنفار «العزى» لتنتقم من خالد الذى سمع أنه على رأس السرية «القادمة»!!».

السُّلمى : أيا عُزَّ شُدِّى شَدَّةً لا شوى لها
على خالد أَلْقى القنَاَع وشمرى
ياعُزَّ إنْ لم تَقْتُلى المرءَ خالدًا
فبوئى بإثمٍ عاجلٍ أو تَنَصَّرى

«خالد بن الوليد والفرسان يداهمون «بيت العزى» والسادن ينظر من أعلى الجبل.. لا تمضى ساعة إلاّ وقد قوضته معاول الفرسان قبل أن يكروا عائدين إلى حيث النبى والمسلمون فى الانتظار!».

* * *

«النبى – عليه السلام – فى مجلسه، يرد صديقًا من ثقيف أراد أن يهدى زقًا من خمر..»

النبى : (للثقفى معاتبًا) أما علمت أن الله تعالى حرمها؟!

الثقفى : ما علمت فداك أبى وأمى..

«الثقفى ينتحى بغلامه، ويسر إليه بكلمات فينطلق الغلام عدوًا..».

النبى : (للثقفى) بم أمرته؟!

الثقفى : ببيعها.. قلت له اذهب إلى «الحَزْوَرَة» فبعها.

النبى : إن الذى حرم شربها حرم بيعها!

«الثقفى يعدو فى أثر الغلام.. يلحق به فيأخذ منه زق الخمر فيفرغه فى البطحاء..».

* * *

«النبى – عليه السلام – وسط صحابته، ينهاهم وينهى المسلمين عن ثمن الخمر وثمن الخنزير وثمن الميتة وثمن الأصنام وحلوان الكاهن..».

النبى : (للمسلمين) إن الله تعالى حرم بيع الخمر والخنازير والميتة والأصنام..

مسلم : يا رسول الله! ما ترى فى شحوم الميتة؟ فإنه يدهن بها السفن والجلود، ويستصبح بها؟

النبى : قاتل الله الذين من قبلكم، إن الله لما حرم عليهم شحومها أخذوها فجمدوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها!!

* * *

«حويطب بن عبد العزى آمن وسط عياله بداره بعد أن أوصله إليها أبو ذر الغفارى.. يتعجب حويطب من الإحسان الذى قابل به الإسلام إساءاته، لم يدع سبيلاً للشر إلاّ سلكه فى مناهضته لرسول الله، ومع ذلك يغمرونه بهذا الأمان!!.. وإن حويطب لفى خواطره يستعرض شريط الذكريات، يعود إليه أبو ذر يخبره بأن النبى - عليه السلام - قد أكد الأمان الممنوح له.. حويطب ينعقد لسانه لا يدرى ما يقول وقد أسره بر الرحمة المهداة..».

أبو ذر الغفارى : يا أبا محمد!

حويطب بن عبد العزى : (كمن أفاق) لبيك.

أبو ذر : حتى متى وإلى متى؟ قد سبقت فى المواضع كلها وفاتك خير كثير!..

حويطب : (يردد كالنادم) فاتنى خير كثير!

أبو ذر : ويبقى خير كثير.. فأت رسول الله وأسلم..

حويطب : (يردد مأخوذًا) آتى رسول الله وأسلم؟!

أبو ذر : أجل. رسول الله أبر الناس وأحلم الناس وأوصل الناس..

حويطب : فأنا أخرج معك فآتيه..

«يتهلل وجه أبى ذر بشرًا، ويبادر فيصطحب حويطب ويممان شطر الرحمة المهداة..».

* * *

«النبى - عليه السلام - وسط الصحابة ببطحاء مكة، يطلع عليهم أبو ذر وبصحبته حويطب بن عبدالعزى..».

حويطب : (مبادرًا) السلام عليك أيها النبى ورحمة الله..

النبى : وعليك السلام. أحويطب؟!

حويطب : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله.

النبى : (ببشاشة وود) الحمد لله الذى هداك..

«يهلل الصحابة مكبرين، يستقبلون حويطب بالبشر والرحمات..».

* * *

«مضارب هذيل، حيث «سواع» صنم هذيل بن مدركة، الصنم تمثال علـى صورة امرأة مجلوب من بين النهرين، يقال إن قوم نوح كانوا يعبدونه فاعتـادت هذيل ومن حولها من الأعراب عبادته والتقرب إليه.. يضعون النذور فى خزانة جعلوها له يوضع فيها ما يهدى إلى الإله المعبود!! يطلع عمرو بن العاص فى سـرية بعث بها رسول الله لهدم الصنم.. عمرو يتقدم بنفر ممن معه إلى الصنم فيتصدى لهم سادنه..».

السادن : (لعمرو) ما تريد؟!

عمرو بن العاص : هدم سُواع..

السادن : ما لك وله؟!

عمرو : أمرنى رسول الله أن أهدمه..

السادن : لا تقدر على ذلك!

عمرو : لم؟!

السادن : (فى ثقة عمياء) تُمنع.

عمرو : حتى الآن أنت على الباطل! ويحك وهل يسمع أو يبصر؟!

«عمـــرو لا يبالى باعتراضـــه، ويتقدم ومن معه فيهدمون الصنم ثم يأمر عمرو أصحابـه فيهدمـون بيـــت خزانـــة الصنـــم.. لا يجدون فيه شـــيئًا، والسادن واقف معقود اللســـان كالملجـم لا يكـاد يصدق أن الصنم لم يمنعهم من هدمه!..».

عمرو : (للسادن) كيف رأيت؟!

السادن : قد أسلمت لله تعالى..

«المســلمون يكبرون شـــكرًا وحمـــدًا.. تغمرهم المسرات لارتفاع كلمة الله تعالى..».

* * *

«مكة بعد الفتح، والنبى – عليه الســلام – لا يزال فيها، يبلغه – عليه الســلام – أن كثيرين يشكون الفاقة وضيق ذات اليد، فيستنفر الموسرين مـــن قريش أن يقرضوه ليبرهم.. يســـارع عبد الله ابـــن أبى ربيعة بن المغيرة فيخـــرج أربعين ألف درهم، ويحاذيه حويطب بن عبد العزى فيخرج بـــدوره أربعين ألف درهم.. لا يـــكاد صفوان بن أميـــة يراهما يفعلان حتى يخرج خمســـين ألف درهم..».

«النبـــى – عليه الســـلام – يدعـــو إليه أهل الضَّعْف، فيقســـم فيهم ما اقترضه ليســـتعينوا به على ضوائقهم..».

أحد المكيين : (سائلاً) ما أخرجـه عبد الله وحويطب وصفوان أهو صدقة؟!

صحابى : بل هو سلف!

النبى : إنما جزاء السلف الحمد والأداء ... (يلتفت إلى المقرضين) بارك الله لكم فى أموالكم وولدكم..

* * *

«منتدى قريش بظاهر الكعبة، والقرشيون فى هم مقيم وقد ضبطت فاطمة المخزومية فى سرقة، وأوشك أن يقام عليها الحد.. لا يجدون أقرب لشفاعتهم لدى النبى - عليه السلام - سوى حبه أسامة بن زيد.. يكلمونه ويلحون عليه حتى يقبل على مضض، ويمضى إلى رسول الله يقدم رجلا ويؤخر أخرى!!».

* * *

«النبى - عليه السلام - فى مجلسه وسط الصحابة، وقد فرغ أسامة بن زيد من إبداء شفاعته، فلا ينهى حديثه حتى يرى والمسلمون أن النبى - عليه السلام - قد تلون وجهه..».

النبى : (لأسامة عاتبًا) أتكلمنى فى حد من حدود الله؟!

(يستأنف مقرعًا) إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف حدوه.. والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها!

* * *

«فاطمة المخزومية وقد امتثلت لعقوبتها ترجو تنقيــة صفحتها من الوزر.. تلجأ إلى رســول الله عليه الصلاة والسلام سائلة..».

القرشية : (للنبى) هل من توبة؟

النبى : أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك!

«النبى عليه الســلام يتغشاه الوحى، فيوحى إليه من آيــات ربه..».

جبريل : (يتلو على محمد) ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة المائدة الآية ٣٩).

(يرتفع الوحى)

* * *

«بالمُشَــلَّل: جبل من ناحيــة البحر يُهبط منه إلى «قديد».. فى الــوادى صنم من أيام الجاهلية للأوس والخزرج وغَسّان – يدعونه «مناة».. سعد ابن زيد الأشــهلى فى سرية من عشرين فارسًا، ســيرهم رســول الله – عليه الســلام – من مكة لهدم «مناة».. ســعد يقترب بمن معه من «مناة» فيعرض لهم السادن..».

السادن : ما تريدون؟!

سعد بن زيد : هدم مناة!

السادن : أنت وذاك!

«ســعد يتقدم بمن معه لهدم الصنم، فتعرض لهــم امرأة شــعثاء وثائرة الــرأس تدعــو بالويــل

وتضرب صدرها.. لا ينخدع المسلمون بحيلتها ويستمرون فى التقدم إلى «مناة»..».

السادن : (فى محاولة يائسة) مناة، دونك بعض غضباتك!

«المسلمون لا يبالون، يحيطون بالصنم يعملون فيه الهدم حتى يساووه بالأرض، وينصرفون مكبرين عائدين بالخبر إلى حيث الرحمة المهداة..».

* * *

«النبى – عليه السلام – فى صحابته والمسلمين يأتيه رجل ليبايع فتلحظ عين عطف الرحمة المهداة أن الرجل يرتعد مهابةً وإجلالاً لرسول الله.. ينظر عليه السلام إلى الرجل مشفقًا..».

النبى : (حانيًا) هون عليك، فإنى لست بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة!!

* * *

«مكة، العباس بن عبد المطلب فى رهط من المسلمين بظاهر الكعبة.. يأتيه يعلى بن صفوان ابن أمية..».

يعلى بن صفوان بن أمية : يا أبا الفضل، ألست تعرف بلائى؟

العباس : بلى.. وماذا؟!

يعلى : أتيت رسول الله بأبى ليبايعه على الهجرة فأبى!

«العباس ينهض ليصحب يعلى بن صفوان إلى رسول الله..».

* * *

«النبـــى – عليه الســـلام – بمجلســـه، يأتيه العباس ومعه ابن صفوان..».

العباس : (متشـــفعًا) يا رســـول الله، أتاك يعلى بأبيه لتبايعه على الهجرة فلم تفعل

النبى : إنه لا هجرة اليوم..

العباس : أقسمت عليك يا رسول الله لتبايعه ٠

النبى : (النبـــى وقد مد يده حياءً للمبايعة) قد أبررت عمى، ولا هجرة.. (يســـتأنف) لا هجـرة بعـد الفتح ولكـن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا..

«ينصرف العباس وصاحبه راجعين..»

* * *

«النبـــى – عليـــه الســـلام – بمجلســـه بـــين الصحابة بمكة، يطلع عليه ســـعد بن أبى وقاص وقـــد احتضـن غلامًـــا وأتى به إلى الرســـول وفى أعقابه عَبْدُ بن زَمْعة..».

سعد بن أبى وقاص : يا رسول الله، هذا ابن أخى عتبة عهد إلىّ أنه ابنه..

عبد بن زمعة : (معترضًا) يا رســـول الله، هذا أخى، هذا ابن زَمْعة ولد على فراشه.

«النبى – عليه الســـلام – يتمعـــن فى الغلام فيراه شـــديد الشـــبه بعتبة بن أبى وقاص، حتى لتكاد ملامحهما أن تكون واحدة.. يؤكد الصحابة المحيطـــون بالنبى أن الغلام نســـخة تكاد تكون مكررة من عتبة..».

النبى : (لابـن زمعة) هو لك. هو أخوك يـا عبْدُ بن زَمْعة، من أجل أنه ولد على فراشه..

سعد بن أبى وقاص : هو ابن أخى يا رسول الله.

النبى : قـد ولد على فـراش زمعـة.. الولد للفـراش، وللعاهر الحجر!

* * *

«على مشارف مضارب بنى جذيمة، خالد بن الوليد فـى سـرية ومعه من قبائل العرب: سليم ومدلج.. قد بعثه رسـول الله - عليه السـلام - فيمن بعث لدعوة القبائل حول مكة إلى الإسلام، وأمره بأن يسـير بأسـفل تهامة ناشـدًا القبائل ومنهـم بنو جذيمـة داعيًـا إلى الله - عز وجل - خالد ينزل بالمسـلمين علـى «الغميضاء»: ماء مـن مياه بنى جذيمة بن عامر بـن عبد مناه بن كنانـة.. تلمحهم بعض العيون فتطير بالخبر إلى مضارب القبيلة..».

* * *

«مضارب بنـى جذيمة، وقد اجتمعت القبيلة وجلة مشوشـة جافلة من مقـدم خالد بن الوليد فيمن معه..».

أحدهم : (مذعورًا) إنه خالد بن الوليد.. لا أرى إلاّ شرًّا..

آخر : لـــم؟!

الأول : قد أصبنا فى الجاهلية عوف بن عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة.

«بنــو جذيمة ينفــرون مرتاعين إلى الســلاح

يتأهبون لمدافعة القادمين..».

خالد بن الوليد : (وقد رأى إشهار السلاح) من أنتم؟

بنوجذيمة : نحن قوم مسلمون..

خالد : (متعجبًا) فما بال السلاح عليكم؟!

بنو جذيمة : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا منهم، فأخذنا السلاح لندفع عن أنفسنا!

خالد : فضعوا السلاح! إن الناس قد أسلموا!

جحدم : (يعترض محذرًا) ويلكم يا بنى جذيمة! إنه خالد!

بنوجذيمة : وما يطلب محمد من أحد أكثر من أن يقر بالإسلام؟! ونحن مقرون بالإسلام!

جحدم : (مصممًا على تحذيره) والله ما بعد وضع السلاح إلاّ الإسار، ثم ما بعد الإســار إلاّ ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحى أبدًا!

«بعــض بنــى جذيمــة يلتفون حــول جحدم

يهدئونه ويراجعونه..».

بنو جذيمة : (لجحدم، يا جحدم، أتريد أن تسفك دماءنا؟! إن الناس قد أسلموا، ووضعت الحرب، وأمن الناس..

جحدم : (وهو يضع سلاحه على مضض) أما والله ليأخذنكم خالد بما تعلمون من الأحقاد القديمة!

* * *

«النبى – عليه السلام – بمكة، وقد صحا من نومه على رؤيا أريها – عليه السلام – فى منامه.. النبى يروى لصاحبه الصديق..».

النبى : رأيت كأنى لقمتُ لقمةً من حَيْس (تمر مخلوط باللبن والسمن) فالتذذت طعمها فاعترض فى حلقى منها شىء حين ابتلعتها فأدخل «علىٌ» يده فنزعه!

الصديق : يا رسول الله، هذه سرية من سراياك تبعثها يأتيك منها بعض ما تحب ويكون فى بعضها اعتراض فتبعث عليا فيسهله..

«يظهر رجل قادم على عجل، عليه علامات الوجل والاضطراب..».

صحابى : (للرجل) من الرجل؟

القادم : من بنى جذيمة.. أفلتُّ مما يصنع خالد بن الوليد ببنى جذيمة!!

«القادم ينطلق فيروى أن خالد بن الوليد أمر بالقوم فأسروا وكتفوا، ثم أخذ يجهز على بعضهم!».

القادم : كان بنو سليم مغيظين موتورين من حروب كانت لنا معهم فى «برزة» (موضع فى ديار بنى كنانة).. أخذ بعض الناس تقول لخالد إننا مسلمون، فيقول لهم: وما يدريكم أنهم مسلمون!!

النبى : هل أنكر عليه أحد؟

القادم : قد أنكر عليه رجل أبيض رَبْعة فنهمه (زجره) خالد فسكت عنه!

عمر بن الخطاب : هو ابنى عبد الله يا رسول الله..

القادم : (يستأنف) وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب فراجعه فاشتدت مراجعتهما..

عمر بن الخطاب : هو سالم مولى أبى حذيفة..

النبى : (وقد رفع يديه إلى السماء) اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد.. اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد..

* * *

«النبى – عليه السلام – بعد أن سكن بعض غضبه، يدعو إليه علىّ بن أبى طالب..».

على بن أبى طالب : لبيك يا رسول الله.

النبى : يا علىّ اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك. فد لهم (أد إليهم دية) ما أصاب خالد بن الوليد..

على : أفعل بأبى أنت وأمى يا رسول الله..

«ينطلق علىّ بما جمعه له رسول الله من أموال – إلى حيث أمره الرحمة المهداة..».

* * *

«مضارب بنى جذيمة.. على بن أبى طالب يبحث فى القوم عن كل مصاب، فيؤدى له دية ما أصاب خالد.. علىّ يستمر فى مراضاة القوم وتطبيب جراحهم، ويزيدهم بما أتاه به رافع مددًا من رسول الله حتى أوفى بما أشفى نفوس الجميع.. علىّ يتهيأ للعودة فيجد بعض المال قد تبقى معه بعد أن أدى الديات..».

على : (للقوم) هل بقى لكم دم أو مال لم يؤد لكم؟

بنوجذيمة : لا.

على : (للقوم) هذه البقية من هذا المال – لكم من رسول الله احتياطًا له مما أصاب خالد مما لا يعلمه ولا تعلمونه.. أرضيتم؟

بنو جذيمة : رضينا..

* * *

«النبى – عليه السلام – فى صحابته بمكة، يطلع عليهم على بن أبى طالب راجعًا من مضارب بنى جذيمة..».

النبى : ما صنعت يا علىّ؟

على بن أبى طالب : وديت لهم كل من قتل خالد حتى «ميلغة» الكلاب (الإناء الذى يلغ فيه الكلب)، ثم بقى معى بقية من مال أعطيته لهم وقلت: هذا من رسول الله احتياطًا له مما لا يعلمه ولا تعلمونه.

النبى : أصبت وقسطت وأحسنت!.. (آسيًا) ما أمرت خالدًا بالقتل، إنما أمرته بالدعاء..

«النبى – عليه السلام – يقوم فيستقبل القبلة رافعًا يديه إلى السماء حتى ليرى المسلمون بياض ما تحت منكبيه».

النبى : (داعيًا) اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد
اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد
اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد
(يلتفت إلى أصحابه) ما أمرته إلاّ بالدعاء!

* * *